كتاب العقيدة

obeikandl.com

obeikandl.com

❁ التوحيد ❁

(١) تقول السائلة أ. ع: قرأت في كتاب أن أهل التوحيد لا يخلدون في النار، فمن هم أهل التوحيد؟

فأجاب -رحمه الله تعالى-: أهل التوحيد الذين عبدوا الله -تعالى- وحده، أي: قاموا بالعبادة مخلصين بها لله، متبعين فيها لرسول الله ﷺ، ولا يختصون بطائفةٍ دون أخرى، في أي بلادٍ كان الإنسان، ومن أي قبيلةٍ كان، ومن أي جنسٍ كان، إذا قام بعبادة الله -عز وجل- وحده، مُتَّبِعًا في ذلك رسوله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- فهو من أهل الجنة.

***

(٢) يقول السائل: ما هي أنواع التوحيد وشروط كلمة التوحيد؟

فأجاب -رحمه الله تعالى-: أما بالنسبة لسؤال السائل عن كلمة التوحيد، فكلمة التوحيد هي لا إله إلا الله، أي: لا معبود حق إلا الله، وهذه تتضمن شيئين مهمين:

الأول: نفي الأُلُوهية الحقة عما سوى الله -عز وجل-، فإنه لا إله إلا الله -عز وجل-.

والثاني: إثبات الألوهية الحقة لله -عز وجل-، وبهذا تم الإخلاص في هذه الكلمة العظيمة التي هي باب الدخول في الإسلام، ولهذا من قال: لا إله إلا الله، فقد عَصَمَ دمَه ومَالَه.

ففي الحديث الصحيح أن أسامة بن زيد ﷺ لحق رجلًا مشركًا هرب منه، فلما أحاط به قال المشرك: لا إله إلا الله. فقتله أسامة بعد أن قال: لا إله إلا الله، فأخبر بذلك النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، فقال له: «**يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله**» قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان

مُتَعَوِّذًا. يعني: ليعتصم بها من القتل وليست عن إخلاص، فقال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: «**أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله**» فما زال يُكَرِّرُها عَلَيَّ، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.(١)

فهذا أهم شيء في كلمة الإخلاص.

ومن شروط قبولها أن يكون الإنسان قد قالها عن يقين، أي: قالها مُتيقِّنًا، لا مترددًا ولا مُقَلِّدًا، بل متيقنًا أنه لا إله حق إلا الله -تبارك وتعالى-، ولها مكملات بعضها على سبيل الوجوب وبعضها على سبيل الاستحباب، معلومة في كتب أهل العلم.

***

(٣) يقول السائل ي. ح: ما أقسام التوحيد مفصلة؟ لأننا في زمن كثرت فيه الشِّرْكِيَاتُ، فنشاهد أناسًا يذبحون عند الأضرحة، ويطوفون بها، ويتقربون إليها؟

فأجاب -رحمه الله تعالى-: سؤال الأخ عن التوحيد وأقسامه سؤال مهم، لأن التوحيد هو الذي بُعِثَتْ به الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وحكى الله عن الرسل على وجه التفصيل أنهم كانوا يقولون لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، والنبي -عليه الصلاة والسلام- جاء بتحقيق هذا التوحيد تحقيقًا تامًّا يمنع العبد من الإشراك بالله الشرك الصغير والكبير.

وقد ذكر أهل العلم -رحمهم الله- أن أقسام التوحيد ثلاثة، وذلك بالتتبع والاستقراء:

أولها: توحيد الربوبية.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد، رقم (٦٨٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، رقم (٩٦).

والثاني: توحيد الألوهية.

والثالث: توحيد الأسماء والصفات.

وقد اجتمعت الثلاثة في آية واحدة من كتاب الله في قوله -تعالى-: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] فقوله -تعالى-: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هذا توحيد الرُّبُوبِيَّة، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ﴾ هذا توحيد الألوهية، وقوله -تعالى-: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ هذا توحيد الأسماء والصفات، أي لا تعلم له سَميًّا أي: مَسَامِيًا يضاهيه ويماثله -عز وجل-.

فأقسام التوحيد ثلاثة:

القسم الأول: توحيد الرُّبُوبِيَّة، وهو: إفراد الله -عز وجل- في الخلق والملك والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مُدَبِّرَ إلا الله، لا أحد يقوم بهذا على وجه الإطلاق والعموم والشمول إلا الله رب العالمين، فهو المتفرد بالخلق، الملك، التدبير، قال الله -عز وجل-: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فهذه الآية فيها حصر الخلق والأمر في الله وحده، وذلك بتقديم الخبر ﴿لَهُ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلْخَلْقُ﴾، وتقديم ما حَقُّه التأخير يفيد الحصر، كما قرر ذلك علماء البلاغة، فالخلق كله له، والأمر كله له -عز وجل-، لا يَشْرُكْهُ أحد، قال الله -تعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤]، وقال -تعالى-: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]، فبيَّنَ الله -عز وجل- أن هؤلاء السفهاء الذين اتخذوا عباده شركاء مع الله، لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض على وجه الاستقلال بها دون الله، ما لهم فيهما من شرك، أي: لا

يملكون شِرْكَةً مع الله -عز وجل-، فليسوا مستقلين في شيء، وليسوا شركاء مع الله في شيء، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، يعني: ما لله أحد من هؤلاء يساعده ويعينه -عز وجل-، بل هو مستغنٍ عن جميع خلقه ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وذلك لكمال سلطانه وعظيم ملكه -عز وجل-، لا أحد يشفع عنده يتوسط بشيء لأحد من خير أو دفع ضرر إلا بإذنه -عز وجل-، وفي هذا قطع لجميع ما يتعلق به المشركون الذين يدعون أنهم يعبدون هذه الأصنام، يتخذونها شفعاء عند الله، قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، ومن المعلوم أن الله لن يأذن لهذه الأصنام أن تشفع، ولا يأذن لأحد أن يشفع لعابد هذه الأصنام، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] وقال -تعالى-: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وحينئذٍ تنقطع كل الآمال التي يتعلق بها هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله غيره، يرجونه نفعًا أو دفع ضرر، فإن ذلك لا ينفعه، قال الله -تعالى-: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

إذًا توحيد الربوبية إفراد الله -عز وجل- بأمور ثلاثة: بالخلق والملك والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر إلا الله، وما يوجد من المخلوق من صنع الأشياء، وما يوجد من المخلوق من الملك، وما يوجد للمخلوق من التدبير، فكله تدبير ناقص، وهم أيضًا غير مستقلين به، بل ذلك من خلق الله -عز وجل-، أما المنفرد بذلك على وجه الاستقلال فهو الله -سبحانه وتعالى-، فللمخلوق خلق وإيجاد، لكنه ليس كخلق الله، فالله -تعالى- مُوجِدُ الأشياء من العدم، والمخلوق لا يستطيع أن يُوجِدَ الشيء من العدم، وإنما يستطيع أن يُرَكِّبَ شيئًا مع شيء، أو يُغَيِّرَ صورة شيء إلى شيء، كما

لو غيَّر النجار الخشبة إلى باب، والحداد الصفائح الحديد إلى أبواب وما أشبه ذلك، لكنه لن يخلق هذه المادة، قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

كذلك الإنسان له مُلك، قال الله -تعالى-: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، وقال الله -تعالى-: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، ولكن هذا الْمُلك مُلْكٌ مقيد محدود ليس بشامل، وليس للإنسان فيه مطلق التصرف، بل هو محدود، فما بيدي من الملك ليس لك، وما بيدك من الملك ليس لي، ثم إنه ملك محدود لا تستطيع أن تتصرف فيه إلا على وفق ما جاءت به الشريعة.

وكذلك للإنسان تدبير: يُدَبِّر مملوكه، ويُدَبِّر زوجته، يُدَبِّر أهله، لكنه تدبير ناقص ليس بشامل، ولا للإنسان فيه مطلق الحرية، وبهذا عرفنا أن المنفرد بالخلق والمنفرد بالملك والمنفرد بالتدبير هو الله -عز وجل- وحده.

هذا قسم من أقسام التوحيد، وهذا التوحيد لم ينكره المشركون الذين بعث فيهم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، بل كانوا يُقِرُّونَ به غاية الإقرار، قال -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وهكذا الآيات الكثيرة كلها تدل على أن المشركين الذين قاتلهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- واستباح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذريتهم كانوا يقرون بهذا التوحيد، لكن ذلك لم ينفعهم، لأنهم مشركون في توحيد الألوهية، توحيد العبادة الذي هو حق الله الخاص له، وهو:

القسم الثاني: توحيد الألوهية: المستفاد من قوله -تعالى-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]،

والألوهية مبنية على شيئين، بل العبادة مبنية على شيئين: المحبة والتعظيم، فبالمحبة يكون الرجاء وفعل الأوامر، طلبًا للوصول إلى محبة الله -عز وجل- وثوابه، والتعظيم -وهو الأساس الثاني للعبادة- به يترك الإنسان الْمَنَاهِيَ التي نهى الله عنها، لأنه بتعظيمه لله يترك مناهيه ويخاف من عقابه.

ثم إن العبادة لها شرطان: الأول: الإخلاص لله. **والثاني:** المتابعة لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

فللعبادة إذًا ركنان ولها شرطان، أما ركناها: فالمحبة، والتعظيم وهما الأساس، وأما شرطاها فهما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، ودليل ذلك قوله -تعالى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله -تعالى- في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمِل عملًا أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِركَه**»(١)، ودليل المتابعة قوله -تبارك وتعالى-: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «**من عمِل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ**»(٢). أي: مردود على صاحبه، لأنه لم تتحقق فيه المتابعة.

وإذا نظرنا إلى حال كثير من المسلمين اليوم وجدنا أنهم ليسوا على توحيد خالص في باب الألوهية والعبودية فمنهم من يعبد القبور، ومنهم من يعبد الأولياء، ومنهم من يطوف بالقبور رجاءً لنفعها ودفعها للضرر، ومنهم من يُؤلِّه الحكام ويجعلهم في منزلة الألوهية، يطيعهم فيما حرم الله فيستحله وفيما أحل الله فيحرمه، وهذا هو اتخاذهم أربابًا، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

فعن عدي بن حاتم ﷺ أنه قال للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: **«أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»**(١).

وهذا القسم من التوحيد هو الذي خالف فيه المشركون رسولَ الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وأنكروا عليه، وقالوا فيه: ﴿ **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ﴾ [ص: ٥] وسبحان الله أن يكون التوحيد عجابًا، وأن يكون شركه صوابًا، فالعجب العجاب الذي لا ينقضي هو أن يشرك هؤلاء بالله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ولا يستجيب لهم إلى يوم القيامة، وقد استباح النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- دماء هؤلاء المشركين، ونساءهم، وذرياتهم، وأموالهم، وقاتلهم على ذلك أشد المقاتلة، حتى يعبدوا الله -عز وجل- أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

أما القسم الثالث: فهو توحيد الأسماء والصفات، وهو إفراد الله -عز وجل- بأسمائه وصفاته، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، ونفي ما نفى الله عن نفسه، والسكوت عما سكت الله عنه ورسوله، إثباتًا بلا تمثيل، ونفيًا بلا تعطيل، وهذا هو الذي انقسمت فيه الأمة الإسلامية إلى أقسام متعددة، فمنهم السلف، وهم فقط أهل السُّنَّة والجماعة الذين أثبتوا لله ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات في كتابه أو على لسان رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، إثباتًا بلا تمثيل، ونفوا ما نفى الله عن نفسه نفيًا بلا تعطيل، وسكتوا عما سكت الله عنه ورسوله، فمن ذلك أنهم أثبتوا لله كل ما وصف به نفسه، كل صفة أثبتها لنفسه من الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والإرادة، والكلام، والعزة، والحكمة، والرحمة، والعجب، والضحك، وأثبتوا لله الوجه

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).

واليدين والعينين، وأثبتوا لله القدم والساق، وكذلك كل ما وصف الله به نفسه أثبتوه لله -عز وجل- لكن بلا تمثيل، يثبتون هذا ويقولون: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فيقولون: لله يد ولكن ليستا كأيدينا، لله وجه لكن ليس كوجوهنا، عينان لكن ليست كأعيننا، وهكذا بقية الصفات. ويقولون أيضًا: إن الله استوى على العرش، علا عليه عُلُوًّا يليق بجلاله -عز وجل-، لكن ليس كاستوائنا نحن على السرير أو على الدابة أو على الفُلْك، لا، لأن الله -تعالى- يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، هذا هو مذهب السلف: إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، ونفي ما نفى الله عن نفسه من الأسماء والصفات، والسكوت عما سكت عنه.

بعد ذلك تنازع الناس تنازعًا طويلًا عريضًا لا ينبني على أصل، لا من المعقول ولا من المنقول، فأثبت قوم الأسماء، وأثبتوا من الصفات صفات قليلة، ليس على الوجه الذي يثبته عليه أهل السُّنَّة والجماعة، بل يخالفونه في كيفية هذا الإثبات.

وأثبت قومٌ الأسماء، ونفوا الصفات كلها، إلا الحياة والعلم والقدرة.

ونفى قومٌ الأسماء والصفات، ونفى قوم الإثبات والنفي، واضطربوا في ذلك اضطرابًا كثيرًا. لكن من هؤلاء من تصل بِدْعَته إلى حد الكفر المخرج من الملة، ومنهم من دون ذلك، ولكن الحق فيما ذهب إليه السلف، وهم أهل السُّنَّة والجماعة وهو: إثبات كل صفة أثبتها الله لنفسه بدون تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، ونفي كل صفة نفاها الله عن نفسه، والسكوت عما سكت الله عنه، وهذه الطريقة السليمة الثابتة سمعًا وعقلًا وفطرة.

وللناس في هذا كتب ورسائل معلومة، ومن أحسن ما رأيته تقريبًا لهذا الأصل العظيم ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وكتبه تلميذه ابن القيم رحمه الله، فإنهما كتبا في هذا الباب كتابات عظيمة مفيدة، ما رأيت أحدًا كتب مثل

كتابتهما، وغالب من يكتب في هذا الباب تجدهم يُقَلِّدُ بعضهم بعضًا، ولهم مقلدون لا يخرجون عن كلامهم ولو تبين الحق، والحقيقة أن الواجب على المرء أن يتبع ما دل عليه كتاب الله وسُنَّةَ رسوله -صلى الله عليه وآله سلم-، وأنه ليس بمعذور إذا خالف ذلك من أجل قول فلان وفلان، قد يخطئ فلان وفلان من المتبوعين خطًا يعذر فيه، لكن التابع الذي تبين له الحق لا يعذر في اتباعه للمخطئين.

وإنني من هذا المنبر -منبر نور على الدرب في إذاعة المملكة العربية السعودية- أدعو جميع إخواني الذين درسوا في هذا العلم -علم التوحيد، وعلم العقائد- إلى تقوى الله -عز وجل-، وأن يسلكوا ما سلكه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأصحابه من الخلفاء الراشدين وغيرهم في هذا الباب العظيم الخطير، لأن هذا الباب مبناه على الخبر المحض، ليس للعقول فيه مجال إلا على سبيل الإجمال، فإن العقول تهتدي إجمالًا إلى أن الله موصوف بصفات الكمال، منزه عن كل نقص وعيب، ولكن لا تدرك هذا على وجه التفصيل، وإنما يؤخذ ذلك من الكتاب والسُّنَّة، وإذا كان هذا هو الواقع، وأن ما يتعلق بصفات الله وأسمائه خبر محض، فإنه يجب علينا أن لا نحيد عمَّا جاء به الكتاب والسُّنَّة قِيدَ أنملة، ولا سُمْكَ شعرة، بل يجب علينا قبول ما جاء به الكتاب والسُّنَّة من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

ولقد رأينا أن الذين يَحِيدُونَ عن هذه السبيل، ويتخبطون خبط عشواء في بعض أسماء الله وصفاته يَضِلُّون كثيرًا، ويؤدي بهم الحال إلى الشرك وإلى الحيرة، كما نقل ذلك عن كثيرٍ من زعمائهم، حتى إن الفخر الرازي وهو من رؤسائهم قال فيما نقل عنه، إما منشدًا وإما ناظمًا[1]:

نهاية إقدام العقول عِقالُ وأكثر سعي العالمين ضَلال
وأرواحُنا في وحشةٍ من جُسومِنا وغايةُ دنيانا أذًى ووَبالُ

---

(١) الأبيات قالها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، وانظر طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٩٦)، وعيون الأنباء (٢/ ٢٨).

ولم نستفِدْ من بحثِنا طولَ عمرنا سِوى أنْ جمعْنا فِيه: قِيلَ وقالُوا

وقال: «لقد تأملتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تروي غليلًا ولا تشفي عليلًا، وجدت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا﴾ [طه: ١١٠]. ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي».

ويقول الآخر[1]:

لقد طفت في تلك المعاهدِ كلِّها وسيَّرتُ طرفي بينَ تلك المعالم

فلم أرَ إلا واضعًا كفَّ حائرٍ على ذقنِه، أو قارعًا سنَّ نادِمِ

وهذا يدل على أن هؤلاء المتكلمين الذين ذهبوا يَحْكُمُون على الله -تعالى- بعقولهم فيما يصفونه به كانوا في حيرة شديدة، وأن من بلغ منهم الغاية في علم الكلام رجع إلى الحق، وهو ما كان عليه سلف هذه الأمة من إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، ونفي ما نفى الله عنه، أو ما نفاه عنه رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، والسكوت عن ما لم يرد به إثبات ولا نفي، وهذا هو الأدب مع الله ورسوله، فعلينا جميعًا أن نتوب إلى الله -عز وجل-، وأن نرجع إلى منهج سلفنا الصالح في هذا الباب العظيم الخطير.

ونسأل الله لنا، ولإخواننا السلامة والتوفيق لمنهج السلف الصالح، وأن يتوفانا على ما يحبه ويرضاه، إنه جواد كريم.

***

(٤) يقول السائل: هل الإيمان هو التوحيد؟

فأجاب -رحمه الله تعالى-: الإيمان والتوحيد شيئان متغايران ومتفقان،

---

(١) الأبيات للشهرستاني، قالها في نهاية الإقدام (ص٣).

فالتوحيد هو إفراد الله -عز وجل- بما يستحقه ويختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: إن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

إن هذه الأقسام جاءت في قوله -تعالى-: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] فقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني توحيد الربوبية، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ﴾ يعني توحيد الألوهية، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ يعني توحيد الأسماء والصفات.

وهذا التقسيم للإيمان في الواقع، لأن الإيمان بالله -عز وجل- يتضمن الإيمان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعلى هذا فالْمُوَحِّدِ لله مؤمن به، والمؤمن بالله موحد له، لكن قد يحصل خلل في التوحيد، أو في الإيمان فينقصان، ولهذا كان القول الراجح أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد وينقص في حقيقته، وفي آثاره ومقتضياته، فالإنسان يجد من قلبه أحيانًا طمأنينة بالغة، كأنما يشاهد الغائب الذي كان يؤمن به، وأحيانًا يحصل له شيء من قلة هذا اليقين الكامل، وإذا شئت أن تعرف أن اليقين يتفاوت فاقرأ قول الله -تعالى- عن إبراهيم خليله -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] كما أنه أيضًا يزيد بآثاره ومقتضياته، فإن الإنسان كلما ازداد عملًا صالحًا ازداد إيمانه، حتى يكون من المؤمنين الْخُلَّصِ.

***

(٥) يقول السائل: كيف يحقق المسلم التوحيد؟

فأجاب -رحمه الله تعالى-: يُحَقَّقُ التوحيد بإخلاص شهادة أن لا إله إلا الله، أي: لا معبود حق إلا الله -عز وجل-، فكل ما عبد من دون الله فهو

باطل، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠]، ويحقق التوحيد -وهو توحيد الاتباع- بالتزام سُنَّةَ النبي ﷺ، فلا يحيد عنها يمينًا ولا شمالًا، وألا يتقدمها إقبالًا، ولا يتأخر عنها إدبارًا.

***

(٦) يقول السائل: كيف يحقق المسلم التوحيد؟

فأجاب -رحمه الله تعالى-: يحقق التوحيد بالإخلاص لله -عز وجل-، وأن تكون عبادته لله تعالى وحده لا يُرَائِي فيها ولا يُحابي فيها، وإنما يعبد الله مخلصًا له الدين، هذا بالنسبة للعبادة.

كذلك أيضًا بالنسبة للربوبية: لا يعتمد إلا على الله، ولا يستعين إلا بالله، قال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لابن عمه وهو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا اسْتَعَنْتَ فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يَنْفَعُوكَ بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يَضُرُّوكَ بشيءٍ لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»[(١)]، وعليه أن يسأل الله دائمًا الثبات على الحق وعلى التوحيد، فإن كثيرًا من الناس وإن كان معه أصل التوحيد لكن تكون عنده أشياء منقصة لإيمانه، وأضرب لك مثلًا شائعًا عند الناس يتهاونون به وهو: الاعتماد على الأسباب، فإن من المعلوم أن الله -سبحانه وتعالى- قَدَّرَ للأشياء أسبابًا، فالمرض قدر الله للشفاء منه أسبابًا، والجهل قدر الله -تعالى- للتخلص منه أسبابًا، الأولاد قدر الله لهم أسبابًا، وهلم جرًّا، فبعض الناس يعتمد على السبب، فتجده إذا مرض يتعلق قلبه تعلقًا كُلِّيًّا بالمستشفى وأطبائه، ويذهب وكأن الشفاء بأيديهم، وينسى أن الله -سبحانه وتعالى- جعل هؤلاء أسبابًا قد تنفع وقد لا تنفع، فإن نفعت

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب، رقم (٢٥١٦).

فبفضل الله وتقديره، وإن لم تنفع فبِعَدْلِ الله وتقديره، فلا يجوز أن ينسى الإنسان المتسبب ويتذكر السبب، نعم نحن لا ننكر أن السبب له تأثير في المسبب، لكن هذا التأثير إنما كان بإذن الله -عز وجل-، كما قال الله -تبارك وتعالى- في السحرة: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فالمهم أن تحقيق التوحيد هو تعلق القلب بالله -تبارك وتعالى- خوفًا وطمعًا، وتخصيص العبادة له وحده.

obeikandl.com